

دعوة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم

خاتمهم نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- هو الذي بدأ بهذه الدعوة أي بالدعوة إلى التوحيد ، وذلك لأنه خرج في قومه وقد غيروا دين الله تعالى الذي هو دين إبراهيم ودين إسماعيل مع أنهم يعترفون بأن الله تعالى ربهم وخالقهم ، ومع أنهم إذا كانوا في الضيق وفي شدة أخلصوا الدين لله تعالى وعيدوه وحده . ومع أنهم كانوا يحجون ويعتصمون ويذكرون الله كثيرا وكان لهم أخلاق سامية رفيعة ، فكانوا يحمون الجار ويكرمون الضيف ويحملون الكل ويكسبون المعدوم يتنافسون في الكرم وفي الشجاعة يحمون نساءهم وذراريهم بأنفوسهم عن الفواحش يحمون أنفسهم عن فعل المحرمات ، ولكن مع ذلك يعبدون آلهة غير الله تعالى ، يعبدون الله ويعبدون معه آلهة غيره ، فجاءهم بالتوحيد ومكث يدعوهم إلى قول لا إله إلا الله عشر سنين يدعوهم إلى التوحيد ، لم يبدأ بدعوة غير التوحيد يأمرهم بأن يقولوا لا إله إلا الله ويكرر ذلك عليهم ، وذلك لأنهم يسمون تلك المعبودات آلهة فلذلك أنكروا عليه وقالوا: { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا } لنا آلهة كثير نعيدهم ونصرف لهم عبادتنا فكيف نجعل العبادة لواحد . { أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا } ثم قال تعالى عنهم: { وَأَنْطَلِقَ الْمَلَائِكَةُ مِنْهُمُ أَنْ آمَسُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ } هكذا سموها آلهة { وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ } تلك الآلهة لا تنفعهم ولا تضرهم ، ولكن حملهم عليها التقليد واتباع الآباء والأجداد ، في زعمهم أنها تفيدهم وأنها ترزقهم وهم مع ذلك يشاهدون أنها مخلوقة ، وذلك لأنهم يعبدون أشجارا ، يأتون إلى شجرة ثم يعبدونها كشجرة العزى وقد تموت الشجرة فينتقلون إلى شجرة أخرى ، كذلك أيضا ينتحون أصناما من حجارة أو من خشب وقد تحترق أو تبلى أو تتكسر ثم ينتقلون فينتحون مثلها ، وكذلك أيضا يعبدون بقع يقولون هذه البقعة لها مكانة فيبقون في عبادتها مدة ثم بعد ذلك ينتقلون إلى بقعة أخرى هذه حالتهم . ولا شك أن هذا من الجهل العميق بهم ، فإنهم يعرفون أنها مخلوقة وأنها منحوتة ، ولكن زين لهم الشيطان أنها تفيدهم وأنها تنفعهم ، فلذلك صاروا يتعلقون بها ويعبدونها ويسمون دعائها عبادة ويسمونها آلهة لأن قلوبهم تألها ، بعث الله -تعالى- نبيه -صلى الله عليه وسلم- بإخلاص الدين لله وبعبادته وحده وترك عبادة ما سواه ، ولذلك قال الله في أول ما أمره: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ } هذه الآية أول ما أمروا به ، أو أول ما يمر بهم إذا قرءوا القرآن في سورة البقرة ، وهي سورة مدينية جعل الله تعالى فيها هذا الأمر { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ } . وقد وردت أيضا خطابات بالأمر بعبادة الله أو بتقوى الله مثل قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ } اتقوه يعني خافوه وذلك بعبادته وحده ومثل قوله: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَحْسِنُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنُ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنُ وَالِدِهِ شَيْئًا } أمرهم بتقوى الله تعالى وتقواه هي محافظته وعبادته ، فهذه من دعوة نبينا -صلى الله عليه وسلم- ثم إن الله تعالى أمره بأن يخلص عبادته لله ولا شك أن أمره يعتبر أمرا لأُمَّته؛ حيث إنهم تبع له فعليهم أن يتبعوه ، فإذا قرأنا قول الله تعالى: { قَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ } الأمر بقوله: { قَاعْبُدِ اللَّهَ } إذا كان خطابا للنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- فإنه تتبعه فيه أمته . وإذا كان خطابا لكل فرد من الأمة فإنهم مأمورون بهذه العبادة مأمورون بأن يعبدوا الله مخلصين له الدين ، وكذلك قول الله تعالى: { قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ } ثم قال بعدها: { قُلْ إِلَهًا أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي قَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ } على وجه التحديد أي أن الدين الذي أمرني الله تعالى به هو أن أعبد الله مخلصا له ديني ، فإذا لم تعيدوه فإنكم خاسرون { قَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } هذا هو حقيقة الخسران . لا شك أن هذا كله تأكيد لبيان دعوة نبينا -صلى الله عليه وسلم- وأنها مثل دعوة الرسل قبله ، بمعنى أن الرسل كلهم دعوتهم جميعا إلى الإخلاص ، إلى إخلاص العبادة لله وحده وإلى ترك عبادة كل ما سواه ولذلك قال تعالى: { وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ } لو سألهم لنفوا وقالوا ما أرسلنا إلا بالإخلاص ، بعثنا الله وأمرنا بأن نأمر الناس أن يخلصوا عبادتهم وطاعتهم لله وحده وألا يعبدوا إلهة غيره بل تكون عبادتهم كلها لله وحده . هذا هو الذي بعثت به الرسل ، فمن الناس من قبل واهتدى لما رأوا الآيات وذلك لأن الله تعالى أيد رسله بالآيات والبراهين التي تدل على صدقهم ، وأظهر على أيديهم المعجزات فكان في ذلك سببا في هتداء من اهتدى منهم في أن هدى الله تعالى من أراد به خيرا من الأمم ولهذا قال تعالى: { قَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ } من هداهم الله هم الذين قبلوا دعوة الرسل .